أفاق فكرية
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 73 - 85
الرحلات العلمية التواتية نحو بلاد الساحل الإفريقي وإسهاماتها العلمية
salem2900@gmail.com

الرحلات العلمية التواتية نحو بلاد الساحل الإفريقي وإسهاماتها العلمية

- سالم بوتدارة
- جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي –
- salem2900@gmail.com

تاريخ الارسال : 2018-05-19 تاريخ القبول: 2018-07-06

الملخص: تُعدّ الرحلات العلمية بين منطقة توات جنوب الجزائر وحواضر بلدان الساحل الإفريقي في الفترة الحديثة عاملا مهما في إثراء الحياة الثقافية بتلك المناطق الإفريقية، رغم الصحراء الجرداء الفاصلة بينهما، إذْ مثّلت توات الطريق الغربي الأهم الذي يربط حواضر بلاد الساحل بالشمال الإفريقي، خاصة بعد تراجع مكانة سجلماسة نظرا للإضطرابات السياسية مطلع الفترة الحديثة، وانتشار قطاع الطرق على طول الطريق المؤدي إلى بلاد السودان من الجهة الغربية، وقد نتج عن تواجد طريق آمن يربط توات بمنطقة بلاد الساحل الإفريقي رحلات عديدة وعلاقات متنوعة، أكسبت هذه المنطقة من الجنوب الجزائري بعدا علميا حضاريا كان له أثر جليّ على بلاد الساحل الإفريقي.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى إلقاء الضوء على الدور الذي جسدته الرحلات العلمية التواتية في بلاد الساحل الإفريقي، سواء كان دوراً أدّاه الأعلام فرادى، أو أدواراً مثلتها الجماعات، ونقصد بها تلك القبائل التي كانت تطوف بين المنطقتين، وتضم بين أبنائها أعلام وعلماء تركوا بصمتهم بمناطق السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية: توات، السودان الغربي، الرحلات

Tuat Scientific expeditions towards the Sahelian countries and their scientific contributions

Abstract: Despite the fact of being a Sahara, the scientific journeys of Tuat, in the South of Algeria, towards the African Coast have played a significant role in enriching the cultural life in the African regions during the Modern Era. Tuat was the main western road which facilitated the connection between the South and the North mainly after the problems that Sajlamassa was facing at the early of the Modern Era. The political disorders and the spread of muggers along the way towards region of Sudan were the problems that Sejlamassa faced. The safe road of Tuat has given this region of the Algerian South a considerable status.

This research paper aims at spotting the light on the scientific journeys of Tuat and the role of scholars, either as individuals or as tribes, who left their traces in the Western Sudan.

Key Words: Tuat, the Western Sudan, and Journeys.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 73 - 85
salem2900@gmail.com

تقديم :

مثلت منطقة توات الواقعة بالجنوب الغربي الجزائري في الفترة الحديثة نقطة عبور للقوافل القادمة من الشمال الغربي والمتجهة نحو بلاد الساحل الإفريقي، ولم تقتصر أهمية المنطقة على العبور فقط، فقد كانت محطة انطلاق إلى بلاد السودان للأفراد والجماعات فشكلت بذلك علاقات وطيدة مع تلك الأقاليم السودانية، غلب عليها الطابع العلمي والتجاري، وقد برز جليا التأثير العلمي لعلماء توات على ربوع تلك المناطق من خلال رحلات العلماء التواتيين وانتصابهم للتدريس هناك.

والحديث عن الإسهامات العلمية للرحلات التواتية في بلاد الساحل الإفريقي، يجرنا إلى الحديث عن تلك الرحلات ودوافعها ومن ثمة إسهاماتها ونتائجها.

أولا: الرحلات العلمية التواتية مفهومها ودوافعها ومظاهرها:

يعرف أبو القاسم سعد الله الرحلات العلمية أنها تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم والزيادة والاطلاع على البلدان عموما والأخذ عن علمائها وممارسة التجارة فيها أحيانا[1].

وتعتبر الرحلة أهم رافد من روافد التواصل العلمي بين منطقة توات و بلاد الساحل الافريقي لما كان يتم فيها من احتكاك و تبادل مباشر للعلوم و المعارف و سواء كانت تلك الرحلات دينية كركب الحجيج و التي كان يصحبها علماء و فقهاء يتقدمهم شيخ يسمى شيخ ركب الحجيج، أو رحلات علمية خصيصاً لغرض العلم سواء لطلبه و الاستزادة منه أو لنشره بغرض الانتفاع به، أو حتى تلك الرحلات التي كانت عبارة عن هجرات بين المنطقتين سوء كانت فردية أو جماعية و التي كونت لنا نسيجاً علمياً غير منقطع بين المنطقتين نتج عنه تلك الأسر العلمية التي اشتهرت بعلمائها وما تركوه من زخم علمي يمثل إرث حضاري بين المنطقتين كما نتج عن هذا تلك الإجازات و السماعات التي يحصل فيها الطالب عن إجازة من شيخه في كل ما قرأه و سمعه عنه حفظاً و رواية.

وتعتبر الرحلة العلمية مظهرا من مظاهر الحركة العلمية والنشاط الثقافي وهي أحد أهم الأسس التي يرتكز عليها طالب العلم لاكتساب ملكات جديدة، "فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشائخ يفيده

تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم، وطرق توصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ، والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم... فالرحلة لابد منها في طلب العلم لإكساب الفوائد، والكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرجال"[(2)].

وعلى هذا الأساس جرت عادة العلماء في السير لأجل الاستزادة من العلم الموجود في بلده، وطلبا للعلم المفقود منه، وطلبا لعلو الأسانيد، كما أن الرحلة سبب في جلب أمهات الكتب وملأ خزائن المكتبات بنفائس المصنفات العلمية، وفيها تحصل الملاقاة بأعيان العلماء ونبهاء الطلبة، مما يرسخ المحبة، فيتراجع العلماء في القضايا لا على وجه التضاد بل على وجه التناصح والتحاور، وفيها يتعرف الطالب على اختلاف العادات وتنوع الأعراف، ويستفيد من مناهج العلماء في التعامل مع تلك الأعراف وهاتيك العادات، وتكسب الرحلة الطالب ملكة لتمييز قوي العلوم من ضعيفها، وما هو الأولى منها، وتعطيه قدرة على أنماط تعليمية لم تكن ببلده.

تعتبر الرحلة أهم رافد حوى الإسهامات العلمية لعلماء توات ببلاد الساحل الإفريقي، لما كان يتم فيها من احتكاك و تبادل مباشر للعلوم و المعارف، و سواء كانت تلك الرحلات دينية كركب الحجيج و التي كان يصحبها علماء و فقهاء، يتقدمهم شيخ يسمى شيخ ركب الحجيج، أو رحلات علمية خصيصاً لغرض العلم، سواء لطلبه و الاستزادة منه أو لنشره بغرض الانتفاع به، أو حتى تلك الرحلات التي كانت عبارة عن هجرات بين المنطقتين، سواء كانت فردية أو جماعية، و التي أعطت نسيجاً علمياً غير منقطع بين المنطقتين نتج عنه أسر علمية اشتهرت بفقهائها الذين خلفوا تآليف شكلت زخما وتراكما حضاريا بين المنطقتين، كما أن لحركة العلماء والطلبة كما هائلا من الإجازات والسماعات أعطت القرينة عن المكانة العلمية لتلك الجهات في فترة تاريخية اتسمت فيها العلاقات بالاتصال والاستمرارية.

وبما أن الحج كان يشكل فرصة للالتقاء فقد كانت توات إحدى المحطات الرئيسية لاجتماع حجاج بلاد الساحل الإفريقي بحجاج توات وتشكيل ركب واحد يضم إلى جانب الحكام والتجار علماء وفقهاء وطلبة على غرار ما كانت عليه القافلة الحجية للباشا علي أحد بشوات تنبكتو عندما أراد الحج سنة 1041هـ 1631م، فكان معه فقيهين مشهود لهما بالعلم والصلاح أحدهما الشيخ

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 73 - 85
salem2900@gmail.com

أحمد بن عبد العزيز القوراري، والشيخ محمد بن الشيخ احمد بابا التنبكتي، إلى جانب ثمانين رجل، وقد مرت القافلة بتوات.

ومن المهم التنويه على أن ركب الحجيج كان يضم علماء أجلاء جلسوا للتدريس خلال فترات الراحة وقد اغتنم طلبة توات تلك الفرصة للأخذ والاستزادة منحت أثناءها بعض الإجازات العلمية[3].

ومن العلماء الذين زاروا توات خلال رحلته الحجية، الشيخ أبو بكر بن الحاج عيسى أبي هريرة الغلاوي ت1146هـ-1733م والذي حج عام1121 هـ -1709م رفقة الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي[4]، كما حج سنة 1151 هـ - 1744 م الشيخ أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي ت1199 هـ -1785م[5] والذي أتى بخزانة نفيسة[6] من الكتب اقتناها من الحج ومن دون شك نسخ البعض منها في توات.

ومن الحجاج الفقهاء أيضا الشيخ الحاج البشير بن أبي بكر بن الطالب محمد البرتلي ت1214هـ - 1799م حج سنة1204هـ -1789م وله رحلة حول ذالك يذكر فيها مراحل الطريق من توات إلى بيت الله الحرام[7].

كما كان للحجاج الأفارقة أماكن محددة يأتون إليها داخل توات في أوقات معلومة من السنة، وهناك يلتقون بالطلبة و العلماء من المنطقة، فيبقون في انتظارهم وعندها يتم التبادل العلمي والإجازات والمخطوطات واهم مراكز الالتقاء هي زاوية الشيخ علي بن حنيني بزاجلو، وزاوية كنتة وزاوية الركب النبوي بأقبلي بتيديكلت، وزاوية تسابيت[8] وزاوية عبد الله بن طمطم بأوقروت[9] إقليم قورارة لمن اختار الحج عبر الطريق الشمالي[10].

ولا يمكن اختزال صورة الإسهامات العلمية القائمة في العصر الحديث بين توات وحواضر بلاد الساحل الإفريقي على تنقلات الحجيج، إذْ جسّد طلبة العلم السودانيين وجه آخر لتلك العلاقات بفضل رحلاتهم العلمية نحو بلاد توات، ومثال ذلك رحلة أبي عبد الله الفلاني (ت 1194هـ/1780م) من بلاد التكرور إلى تينيلان بتوات لتلقي العلم عن الشيخ عبد الرحمان التينيلاني، حيث مكث شهرين وستّ ليالي أجازه الشيخ عبد الرحمان بن عمر ببعض العلوم.[11]

كما زار توات مرات عديدة الشيخ أحمد بن الأمين الغلاوي (ت1157هـ/1744م)[12] ، وهو شيخ ركب الحجيج من بلاد التكرور[13] إلى توات، فيكون الأمر لأبي نعامة القبلاوي.

وقد حلّ بتوات محمد الإداوعلي[14] (ت1198هـ/1784م) قادما من بلاد شنقيط[15]، ونزل بزاوية الركب النبوي بأقبلي، حيث استقبله شيخها أبو نعامة وطلب منه البقاء معه، لكن محمد الإداوعلي[16] فضل الإنتقال لتوات وبالضبط لتمنطيط عند الشيخ البكري بن عبد الكريم، الذي استقبله وبقي عنده دارسا ومدرّسا، فذاع صيته في توات وطلبه عدد من أعيان القصور، فاختار قصر اعباني بفنوغيل[17]، حيث استقر هناك وبنى زاويته ومدرسته، لكن شدة الحنين لبلاد الساحل الإفريقي في آخر أيامه هاجر إليها وتوفي هناك.[18]

هذا عن التنقلات العلمية لأعلام بلاد الساحل وعلمائهم صَوب توات، أما عن تنقل التواتيين فقد كان لعلمائهم وحتى تجارهم، دور مميز في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى الشعوب الإفريقية، و في تشيد صروح التمدن و الحضارة، إذ يؤكد أغلب المؤرخين على دورهم الفاعل في نضج وقوة المماليك الإسلامية التي عرفتها بلاد الساحل الإفريقي، بدءً من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وهو عهد ازدهار الحضارة الإسلامية، حيث انتشرت المدارس و المعاهد الإسلامية بفضل جهود علماء المغرب الإسلامي، و خاصة التواتيين منهم الذين تميزوا عن أقرانهم بحركتهم النشطة، وصبرهم الجلد وتأقلمهم وتعايشهم مع السكان[19]، وهذا ما فعله الشيخ احمد الرقادي الكنتي (ت 1063هـ 1653م)، مؤسس الزاوية الكنتيه بتوات الذي كان له نشاط علمي ببلاد الساحل الإفريقي، حيث تذكر المصادر التاريخية انه بعدما شاهد إقبال الطلبة السودانيين عليه أسس زاوية ومدرسة بتنبكتو لنشر العلم، وبعد أن توفي جاء وفد من أعيان تنبكتو لزاويته بتوات وطلبوا من ابنه الشيخ علي الرقادي الكنتي ان يرسل معهم من يقوم بأمر التعليم في الزاوية، فأرسل معهم ابن أخيه الشيخ احمد بن عمر بن احمد الرقادي الكنتي، وبعد مدة ورد على الزاوية الكنتيه وفد من أعيان أروان يطلب هو الآخر شيخا معلماً، فأرسل معهم الشيخ الأمين المعروف بذي النقاب الذي بقي في أروان قائماً بالتعليم و الدعوة إلى أن توفي بها[20]، كما استوطن أقدز[21] الشيخ عبد المهيمن ابن محمد بن احمد بن ميمون التمنطيطي الذي كان من العلماء العاملين توفي بأقدز سنة1008هـ 1600م[22].

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 73 - 85
salem2900@gmail.com

ويذكر صاحب فتح الشكور[23] أنه تتلمذ على الشيخ عبد المالك الرقاني[24] الذي كان كثير التّرحال إلى بلاد الساحل من أجل التجارة، ونشر العلم، وأخذ عليه الورد الشاذلي، بالإضافة إلى وجود أكثر من أربعين شخصية تواتية في بلاد التكرور، كما كان للشيخ الرقاني رحلات إلى عدة أماكن في بلاد الساحل الافريقي، مثل السنيغال، و بوركينافاسو، التي لا زالت بها زوايا تابعة لطريقته.[25]

وقد كانت زاويته إلى وقت قريب ملتقى المريدين والعلماء وطالبي الصلح من تنبكتو وأروان وشنقيط وتوات وغيرهم.

ويخبرنا الشيخ عبد الرحمان التنلاني في رحلته أنه زار بلاد التكرور رفقة شيخه عمر بن محمد المصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي (ت1157هـ/1747م) والتي دامت شهرا، زار خلالها عدة أماكن في بلاد الساحل الإفريقي، حيث نزل بتاودني[26]، ومنها انتقل إلى اروان حيث التقى بالشيخ أحمد بن صالح السوقي التكروري، ومن أروان توجه إلى قرية المبروك، لكنه ما لبث فيها إلا قليلا ليعود إلى توات تاركا شيخه الكنتي في بلاد التكرور لوجود أهله وعشيرته فيها، وقد كان الشيخ عبد الرحمان كثير التردد على هذه المنطقة، حيث زارها مرات عديدة.[27]

وإذا كان عبد الرحمان التنلاني قد دوّن رحلته إلى بلاد التكرور ليَرسم لنا بها صورة التواصل العلمي بين بلاده توات وبلاد الساحل الإفريقي، فإن هناك ثلّة من العلماء والطلبة ممن سبقوه بالتنقل إلى هناك أو جاؤوا بعده لكنهم لم يدوّنوا تنقلاتهم تلك، بل رصدناها من خلال تراجمهم في المصادر المحلية للمنطقتين، منهم العالم النوازلي محمد بن العالم الزجلاوي الذي زار عدة مناطق في بلاد التكرور، فكانة فرصة لأهالي تلك المنطقة بأن ينهلوا من فيض علمه ويستفيدوا من فتاويه.[28]

والأمر نفسه حصل مع العالم اللغوي محمد بن أبّ المزمري الذي جلس لتدريس اللغة العربية وعلومها بكلّ من تنبكتو واروان، فكان من تلامذته التكروريين الشيخ أبو العباس أحمد بن صالح السوقي.[29]

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 73 - 85
salem2900@gmail.com

وقد تأثّر طلبة العلم التكروريون عظيم التأثر بالشيخ علي بن أحمد بن علي بن أحمد الرقادي الكنتي (1194هـ/1780م)، وذلك بسبب غزارة علمه وتنقله الكثير بين زوايا أجداده الكنتيين هناك ببلاد التكرور.[30]

كما جلس الشيخ أبو الأنوار التنلاني مدّة غير يسيرة بغرض التدريس والإفتاء بحاضرة تنبكتو، فتحلّق حوله علماء المنطقة وأعيانها، وإليه يعود الفضل في تأسيس حاضرة المبروك شمال مالي رفقة شيوخ كنتة بالأزواد كالشيخ الحاج أحمد بن أبي بكر والشيخ المحجوبي سنة 1125هـ/1713م.[31]

وإذا كنتُ قد حاولتُ تجلية العلاقات العلمية التي كانت بين توات وبلاد الساحل الإفريقي من خلال إلقاء الضوء على الدور الذي أدّاه الأعلام فرادى، فإنه من الجدير كذلك التنويه بالأدوار التي مثلتها الجماعات، ونقصد بها تلك القبائل التي كانت تطوف بين المنطقتين، وتضم بين أبنائها أعلام وعلماء تركوا بصمتهم على العلاقات العلمية مابين مناطق ضفتي صحراء إفريقيا الغربية، وتبرز في هذا الصدد قبيلتي كُنتة[32] وفُلاّن[33] اللتان استوطنتا توات وبلاد الساحل الإفريقي، وساهمتا مساهمة عظيمة في التواصل بين المنطقتين بفضل هجراتهما والتزاور بين أفراد القبيلة الواحدة، خاصة وأن هاتان القبيلتان كانتا تحويان علماء وأسر علمية كان لهم الفضل في إثراء الساحة العلمية والثقافية في توات وبلاد الساحل الإفريقي، وتكوين مراكز علمية خاصة بهم، مساهمين بذلك في انتعاش الحياة الثقافية بتلك المناطق الصحراوية.

ثانيا: مظاهر الإسهامات العلمية للرحلات التواتية ببلاد الساحل الإفريقي

أشرت سابقا إلى أن الطريق الذي يربط توات ببلاد الساحل الإفريقي قد أصبح مشجعا للرحالة في العصر الحديث بعد أن تخلوا عن الطريق الغربي الذي يقول عنه ابن خلدون أنه قد أهمل لمّا صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلاد السودان أعلى تمنطيط.[34] فنتج عن ذلك رحلة العديد من علماء توات نحو البلدان الإفريقية فربطوا بذلك علاقات عديدة اقتصادية واجتماعية وثقافية، كلها ساهمت في ازدهار الحياة الثقافية هناك، وهو ما تجلى في حلقات متسلسلة ومظاهر متكاملة تمثلت فيما يلي:

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 73 - 85
salem2900@gmail.com

1. **الكتاب المخطوط:** حيث يمثّل الكتاب المخطوط لعلماء توات أحد أبرز أمثلة الإسهام العلمي التواتي في البيئة الثقافية للسودان الغربي، فقد حظي بالعناية إما تأليفا أو نسخا أو شراءً، لذا انتشرت في بلاد الساحل المخطوطات التواتية.

وكانت حركة التواصل والتأثير من خلال الكتب تتم في كثير من الأحيان بفضل القوافل التجارية التي تنطلق من قصور توات باتجاه بلاد الساحل، محملة بمجموعة من السلع كالتمور، والقماش، والمنسوجات، إلى جانب الكتب، التي راجت تجارتها، و أصبحت من السلع الأساسية، والغالية الأثمان في حمولة القافلة التجارية، خاصة بعدما كانت تدره من أرباح، تفوق بكثير أرباح السلع الأخرى، وهذا ما يشهد عليه الكم الهائل من المخطوطات الموجودة في خزائن تنبكتو[35]، و تيشت، و ولاته، و شنقيط، وودان، و التي تشكل ابرز جوانب الإرث الحضاري لهذه الحواضر الصحراوية[36] وهي في الغالب من تأليف علماء تلك المناطق.

وبذلك انتشرت المخطوطات التواتية في حواضر بلاد الساحل، والمتنقّل في ربوع أرض بلاد السودان الغربي، خاصة منطقة الأزواد منها، تستوقفه خزائن عديدة ضمت العديد من المخطوطات التواتية، ففي مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية[38] بتنبكتو بمالي، توجد العديد من المخطوطات التواتية، لعديد المؤلفين كالمغيلي، وابن أبّ المزمري، ومحمد بلعالم الزجلاوي وغيرهم، وما يقال عن هذا المركز يقال كذلك عن مكتبة ماما حيدرة[38] بمالي، والتي تضم في رفوفها الكثير من المخطوطات التواتية.[39]

كما حفيَت توات بجهود علماء بلاد السودان الغربي المدونة في تآليفهم، ككتب العلامة أحمد بابا التنبكتي، وكتب أعلام الأسرة الكنتية والأسرة الفولاّنية.

2. انتشار الطرق الصوفية بين المنطقتين:

يعد التصوف أحد الروافد التي شكلت رباطا روحياً بين شعوب القارة الأفريقية عامة وبين توات وبلاد الساحل الإفريقي على وجه الخصوص، إذ ساهم في دعم العلاقات التجارية والثقافية والعلمية بصفة أخص، حيث تعبر توات بمثابة البوابة التي دخل منها التصوف إلى بلاد الساحل الإفريقي لتشكل مصدراً لانتشار أهم الطرق الصوفية، التي كانت مشهورة كالقادرية و الشاذلية و

التيجانية في وقت متأخر، وهذا ما نتج عنه ظهور طرق فرعية محلية في كل من توات وبلاد الساحل الإفريقي ساهمت في إثراء هذه العلاقة.

ويتجلى دور الطرق الصوفية في تمتين العلاقات العلمية مابين منطقتي توات وبلاد الساحل الإفريقي في الجهد الذي قام به الشيوخ والعلماء المتصوفون من أجل نشر الإسلام وتعاليم مناهجهم الصوفية ببلاد السودان الغربي.

فقد تلقّت ولاتة المدد الثقافي من توات، وحلّ بها رجال كثيرون من دعاة ومعلمين ومرشدين ومن هؤلاء العلماء يحي كامل المحجوب (جد قبيلة المحاجيب[40] التواتية) والذي بوصوله انتعشت الحركة العلمية في هاته المدينة كما نشر الكنتيون الطريقة القادرية في كل من السنغال والنيجر وساحل العاج وغنيا.

كما اجتهد الشيخ علي بن حنيني الأنصاري الزجلاوي في نشر العلم والطريقة الشاذلية ببلاد الساحل التي ارتحل إليها قادما من توات.[41]

والأمر نفسه قام به الشيخ عبد المالك الرقاني صاحب الطريقة الرقانية وليدة الطريقة الشاذلية، حيث أسس ببلاد الساحل زوايا عديدة تابعة لطريقته.[42]

وقد مثّلت الدروس التيجانية التي كان يلقيها الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله التواتي ببلاد التكرور قاعدة انطلقت منها حركة التجديد التي عرفتها الطريقة التيجانية بلاد السودان الغربي، فتأسست نتيجة لذلك الطريقة الحمالية[43] على يد الشيخ حمى الله، الداعية إلى إصلاح الطريقة التيجانية، وشهدت انتشارا واسعا في حوض السنغال وعدّة مناطق إفريقية.[44]

وبحديثنا عن الدور الطرق الصوفية في وصل حلقات العلاقات العلمية بين جانبي الصحراء الإفريقية، لا يمكننا بحال من الأحوال إغفال الدور الريادي الذي قام به الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي يُعدّ المؤسس الأول للطريقة القادرية في منطقة بلاد الساحل، كما تجدر الإشارة إلى الدور الذي أدّته الأسرة الكنتية في هذا الصدد، إذ حملت لواء الطريقة القادرية ببلاد الساحل بعد الشيخ المغيلي، الذي كان قد تتلمذ على يده الشيخ أحمد البكاي الكنتي، واستمر جُهد الكنتيون في دعم الطريقة هناك مع الشيخ أعمر بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي

(ت959هـ/1552م)، وقد بلغت الطريقة مجدها بظهور الشيخ المختار الكبير الكنتي (ت1226هـ/1821م).[45]

خاتمة:

تلك هي أهم مظاهر الرحلات العلمية ببلاد الساحل الإفريقي في الفترة الحديثة وتأثيراتها، ويمكن كذلك الإشارة إلى مظاهر أخرى تعضّد ما ذكرناه عن الحجم الكبير للإسهام العلمي التواتي بالسودان الغربي، ومن تلك المظاهر:

- تشابه المواد المدرّسة لطلاب بلاد الساحل الإفريقي مع مثيلتها التي تدرّس بتوات، فاللغة المعتمدة هي العربية والمواد هي النحو وعلوم القرآن والفقه والحساب والفلك العربيين.
- المراكز العلمية التواتية التي يتردد عليها علماء وطلبة بلاد الساحل، حيث لا يكتفون بالدراسة على العلماء التواتيين ببلاد السودان، وإنما يتابعون دراستهم بالمراكز العلمية التواتية كتينيلان وتمنطيط وأقبلي.

الاحالات و الهوامش :

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 2005 ، ج 2، ص 382- 383.

2 - ابن خلدون، عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ج 6 ، ص24.

3 - بخدا مريم: أعلام العائلة النيلانية، ودورهم العلمي خلال القرنين 11هـ/12هـ، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة أدرار، إشراف: شترة خير الدين، 2013/2012، ص 25.

4 - البرتلي، أبو عبد الله الولاتي، فتح الشكور في معرفة علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.، ص 76.

5 - نفسه، ص 78.

6 - جعفري مبارك، تنقل علماء توات و تأثيرهم في السودان الغربي خلال القرن 12 هـ/ 18 م، الملتقى الوطني الرابع جامعة أدرار، إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية و الثقافية إبان العصر الحديث(1500 م - 2000 م)، أدرار، 19- 20 أفريل 2010، ص 146.

7 - البرتلي، فتح الشكور، مصدر سابق، ص 83.

8 - هي إحدى دوائر ولاية أدرار تبعد عنها حوالي 60 كم شمالا.

9 - هي دائرة من دوائر ولاية أدرار، تبعد عنها ب 120 كم شمالا.

10 - جعفري مبارك، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي، المرجع السابق، ص 146.

11 - بعثمان عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 26.

12 - أحمد ابن الحاج الأمين الغلاوي التواتي ، شيخ ركب الحجيج من بلاد التكرور حتى يصل إلى توات ، توفي بفزان بليبيا عند رجوعه من حجته الأخيرة سنة 1157 هـ ، انظر : البرتلي ، فتح الشكور ، المصدر السابق، ص ص 48 . 49. 50.

13 - اسم يطلق على الجهة الغربية من بلاد الساحل، وهو الاسم الشائع في الحرمين ومصر والحبشة. ينظر : محمد بللو بن عثمان فودي ، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ، 1996، ص 48- 49. وانظر: محمد الخليفة الكنتي، الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد السالم، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007 ، ص 230- 231.

14 - من أول القبائل التي أسست مدينة شنقيط وعمرتها ، إلى جانب شريكتها قبيلة الأغلال ، التي كانت معها في حروب انتهت بانتقال جمهور منهم إلى هضبة تكالت التي أسسوا فيها قرية تجكجة سنة 1070هـ –1660 م وبقيت فروع إدوعلي أخرى في شنقيط وقسم كان قد انتقل إلى بلاد التارزة في الجنوب الغربي ، ومن هذه القبيلة انتقل إلى توات الشيخ محمد اداوعلي في القرن 12 ه انظر : محمد الخليفة الكنتي ، الرسالة الغلاوية ، المصدر السابق، ص 188- 189.

15 - تكتب بالقاف والجيم ومعناها عيون الخيل ،يُنظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ،مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ،ط2، 1958، ص422.

16 - الشيخ محمد الاداوعلي: هو محمد بك العلوي بن محمد بن كل بن نال بن يحي ويصل نسبه إلى الحسن المثنى بن علي (ض) بن أبي طالب، ولد بشنقيط ثم انتقل منها إلى توات وكان أول العلويين الشناقطة دخولا لأرض توات على ما يروى كان شاعرا فحلا له ديوان شعري ضخم ضمنه قصائد مختلفة في مدح رسول الله (ص) حتى عرف بشاعر المديح النبوي، عاش متنقلا بين أرض شنقيط وتوات وعاصر في منطقة توات الشيخ أبونعامة بتدكلت كانت له قصة مشهورة معه أثناء صفره إلى الحج أرخ لها في قصيدة شعرية ،استقر في توات واتصل بعالمها آنذاك الشيخ البكري ثم رحل إلى تافيلالت بالمغرب واتصل بعالمها الشيخ الغازي، وبعد عودته من تافيلالت استقر بتمنطيط ثم انتقل بعدها إلى قصر أعباني وهناك أسس مسجده ومدرسته القرآنية وأنجب ابنه إبراهيم المدفون في قصر أعباني المدفون بقصر أعباني حاليا. وفي نهاة حايته إلى تنبكتو وبها توفي وصلى عليه جمع غفير وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن المبروك البوداوي، أنظر : جعفري أحمد أبالصافي،الحرك الأدبية في منطقة توات خلال القرنيين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، أطروحة دكتوراه في الأدب، قسم الأدب، جامعة تلمسان،2006- 2007 ،ص321.

17 - هي دائرة من دوائر ولاية أدرار تبعد عنها ب 30 كم جنوبا .

18 - جعفري مبارك، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي، مرجع سابق ، ص 303.

19 - بوعزيز يحي، تاريخ إفريقيا الغربية الاسلامية، دار هومة، الجزائر، 2001، ص 195.

20 - جعفري مبارك، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي المرجع السابق، ص ص 292- 293.

21 - تقع اليوم في الشمال الشرقي من نيامي عاصمة النيجر وتبعد عنها ب 100 كم، احتلت موقعا هاما لمكانتها التجارية، أشار إليها الحسن الوزان باسم مملكة أغاديس، و أفاد أن أغلب سكانها من العرب المغاربة الذين اشتغلوا بالتجارة ويعتمد دخلها على الضرائب التي تؤخذ من التجار الوافدين، انظر : الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص 311.

22 - جعفري مبارك، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي، المرجع السابق، ص 291.

23 - البرتلي، فتح الشكور، مصدر سابق، ص ص 200- 201.

24 - هو عبد المالك بن عبد الله بن علي بن الزين، بن حم، بن الحاج، مؤسس الزاوية الرقانية برقان، وبلاد الساحل، توفي 1207 هـ انظر : جعفري ابا الصافي أحمد، أبحاث في التراث، مرجع سابق، ص ص 44 – 45.

25 - محمد بن مصطفى بن عمر الرقادي، نبذة عن حياة مولاي عبد الله الرقاني، تقييد مخطوط بالمدرسة الرقادية، زاوية كنتة، أدرار، 02.

26 - قامت قرية تاودني حول سبخة الملح الشهيرة باسم تغازي ، تبعد عن تنبكتو بعشرة أيام ، مما أعطاها أهمية في التعاملات التجارية حيث شكلت همزة وصل بين بلاد المغرب وتنبكتو ينظر : الغربي محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، المرجع السابق ، ص 87.

27 - محمد باي بلعالم، الغصن الداني، مرجع سابق، ص 24.

28 - جعفري أحمد أبا الصافي، الحركة الأدبية في منطقة توات، مرجع سابق، ص 321.

29 - جعفري أحمد أبا الصافي، محمد بن أبّ المزمري، مرجع سابق، ص 38.

30 - البرتلي، فتح الشكور، مصدر سابق، ص 200- 201.

31 - عبد القادر بن عمر المهداوي، الدرة الفاخرة، مصدر سابق، ص 03. أيضا : محمد عبد العزيز سيد عمر، المرجع السابق، ص 80.

32 - **قبائل كنتة :** هي إحدى القبائل العربية الأكثر انتشارا في منطقة الصحراء ،قدموا من الشمال نحو توات وبلاد الساحل الإفريقي، على فترات متقطعة ينتهي نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري مؤسس القيروان، استقرت القبيلة في الصحراء خلال القرنين السابع والثامن الهجري ، الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، بعد أن أصبحت الأوضاع غير ملائمة في الشمال، وفي هذه الفترة رحل أحد أحفاد عقبة إلى واحة عزي من قرى توات واستوطنها وهو عثمان بن يهس. ويقصد بكنتة تلك الوحد السلالية القوية التي تتدرج فروعها المختلفة، ابتداءا من توات حتى منطقة زندر (النيجر) بواسطة الطوق الغربي من الصحراء الكبرى المتمثل في توات وأدرار الموريطاني وتاقانت والعصابة والحوض وأزواد وعقفة نهر النيجر وتمترين وأدرار إيفوغاسن حاليا، و منطقة الهوسا الشرقية من نهر النيجر حتى طاوى ، ولم تعد كنتة قبيلة إطلاقا ، حيث أخذت مخيمات تتناثر على الطريقة المذكورة آنفا و إنما كل فرع محليا تطور ضمن محيطه وتواءم مع بيئته وتكاثر أحيانا بشكل غزير جدا ، وانتهى به الأمر إلى تكوين قبيلة حقيقية لوحدها وهي ليست اتحادية إذ مهما تراخى الرابط الاتحادي في القطر العربي فلا نجد هنا أبدا ما يماثله ، ولا تتعارف فروع كنتة المبعثرة في لا نهائية الصحراء الكبرى إلا بالاسم الغالب، ولا يتزاورون إلا في حالات نادرة ولا يلتقون ببعضهم إلا في حالة العداوات الشخصية أو العائلية، غير مترابطين بأية رابطة اللهم الاشتراك والانتماء إلى أصول أولى، وربما أيضا الانتساب إلى الطريقة القادرية. يُنظر: بول مارتي، كنتة الشرقيون ، تعريب وتعليق : محمد محمود ولد ودادي ، مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق، 1985 ، ص 9. أيضا : محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، ج 3 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2001 ، ص 679.

33 - **فلان:** الفلاتة ، البلار ، الهال ، البول ، التكارير ، التكارن ، الفلاشة ،كل هذه الأسماء تطلق على اسم قبيلة عربية تقطن جنوب الصحراء من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر في كل هذه الأقطار المتواجدة في هذه الحزام : موريتانيا ، مالي ، السيغال ، غينيا بيساو ، بوركينافاسو، ساحل العاج،بنين ، نيجيريا ، النيجر ، تشاد ، الحبشة ، ويقدر عددهم بحوالي اثني عشر مليون نسمة ، ويشتغلون بالري والزراعة يرجع نسبهم إلى حمير إحدى القبائل العربية ومنهم من يرجع نسبهم إلى عقبة بن عامر الجهني أحد الفاتحين العرب للصحراء، وقد قاموا بدور بارز في نشر الإسلام، والدفاع عنه في إفريقيا انظر : محمد سليمان الطيب ، مرجع سابق ، ج 3، ص ص 694- 696 . كذلك : كحالة عمر ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج3، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1977 ، ص 927.

34 - ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج 6، ص 118.

35 - كانت أهم خزائن و مكتبات تنبكتو تلك التي تملكها عائلة آل أقيت، التي ينتسب إليها احمد بابا التنبكتي و التي اقتنت معظم كتبها من التجارة حيث قدر احمد بابا مؤلفات مكتبته لوحده التي كانت اقل من مكتبات أسرته كتباً و أهمية بألف و ستمائة مجلد كما كانت مكتبات امتلكها علماء أخرين من آل أقيت مثل بوغيوغو ومحمد بن محمود أقيت الذي كانت مكتبته بمثابة خزانة عامة يستعير منها الطلبة و القراء ما يشاؤون من الكتب . انظر: محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ج1 ،مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، ص 557.

36 - أحمد مولود ولد أيده، الصحراء الكبرى مدن وقصور، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 38.

37 - أنشئ هذا المركز بناء على التوصيات المنبثقة عن اجتماع الدورة الرابعة عشر للمؤتمر العام لليونسكو، وفي 23 يناير 1970 أصدرت حكومة مالي مرسوما يقضي بإنشاء هذا المركز، الذي افتتح رسميا في نوفمبر 1973م، وهو من أكبر الخزائن الإفريقية للمخطوطات حيث يضم 9000 مخطوط منها 50 مخطوطا باللغات الإفريقية والتركية مكتوبة بالحرف العربي. يُنظر: مجموعة من المكتبيين، فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتنبكتو، تحرير عبد المحسن العباس، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997م.

38 - تأسست هذه المكتبة في أواسط القرن 9هـ/15م في قرية بمبا في محافظة بوريم بإقليم غاو في مالي، على يد الشيخ محمد الأمين الجد الأعلى لأصحاب المكتبة الحاليين، تحتوي المكتبة حاليا على 3000 مخطوط موزعة على موضوعات مختلفة (علوم القرآن، الفقه، التصوف، الأدب، النحو، الفلك...)، تعرضت المكتبة في فترات سابقة إلى ضياع جزء كبير من محتوياتها بسبب حريق أصابها، وتهدم بنايتها على المخطوطات، والسطو

والنهب الذي أصابها من مجهولين. يُنظر: عبد القادر ماما حيدرة، فهرس مخطوطات مكتبة ماما حيدرة للمخطوطات والوثائق، تحرير: أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2000، ج1، ص7 وما بعدها.

39 - جعفري مبارك، المرجع السابق، ص 310.

40 - يطلق هذا الاسم على ثلاث قبائل تظاهروا و تعاقدوا في ولاتة و هم أولاد الفقيه عثمان بن يحي بن نيومن ثانياً آل آندا عليه ونسبهم إلى محمد بن الحنيفة، الامامات و نسبهم إلى الصحابي سعيد بن العاص، وذكرت بعض المصادر أن المحاجيب خاصة بأولاد الفقيه عثمان لأن نسائهم لا يتزوجن بالأجانب و لا يحرجن من البيوت، و حسب الراوية الكنتيه فإن الشيخ أحمد البكاي عندما قدم ولاته في القرن التاسع الهجري، هو الذي فرض الحجاب على نساء ولاته، و هناك رواية تقول أن المحاجيب من أصل المحتد الفهري الذي ينتسب إلى عقبة بن نافع الفهري جد الكنتيين، لكن الواضح أن المحاجيب من أصول مختلفة بعضها سوقي و البعض الأخر عربي، ينظر: محمد الخليفة الكنتي الرسالة الغلاوية، مصدر سابق، ص ص 235- 236.

41 - مسعودي زهرة، الطرق الصوفية في توات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18 م إلى القرن 20 م ، مذكرة ماجستير في التاريخ ، قسم التاريخ، جامعة أدرار ، 2009 –2010 ، ص 42.

42 - البرتلي، فتح الشكور، مصدر سابق، ص 200- 201.

43 - **الطريقة العمالية:** فرع من فروع الطريقة التيجانية، تنسب للشيخ حمى الله الذي أراد العودة بالطريقة إلى قواعدها التي أرساها المؤسس أحمد التيجاني، وقد انتشرت على طول نهر السنغال ووصلت إلى النيجر وموريتانيا. ينظر: عبد الرزاق إبراهيم، الطرق الصوفية في إفريقيا ودورها في نشر الإسلام في إفريقيا، ندوة الإسلام والمسلمون في إفريقيا، تنظيم جمعية الدعوة الإسلامية بالتعاون مع معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة والجمعية المصرية الإفريقية للعلوم السياسية، 18- 19 يوليو 1998م، طرابلس ليبيا، ص 01 وما بعدها.

44 - نفسه، ص 11.

45 - قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، مطبعة الجزائر، د.ت، ص 94- 95.